النهر....بقمصان الشتاء

القدس: ١٤-٤-٢٠٠٥

ناقشت الندوة رواية" **النهر...بقمصان الشتاء" للأديب الفلسطيني حسن حميد،** صدرت الرواية التي تقع في ٢٩٠ صفحة من الحجم المتوسط عن "**سلسلة كتاب القراءة للجميع في وزارة الثقافة الفلسطينية في رام الله** بداية العام ٢٠٠٥ وهي من تصميم و إخراج **إيمان العاصي وتقديم الدكتور فيصل دراج.**

بدأ الحديث **جميل السلحوت** فقال:

المؤلف: حسن حميد أديب فلسطيني تنحدر أصوله من قرية كراد البقارة قضاء صفد، ولد في دمشق عام ١٩٥٦، يحمل إجازة في اللغة العربية من جامعة دمشق، ودبلوم دراسات عليا في رياض الأطفال، وماجستير في التربية،عمل مدرسا واشتغل في الصحافة الأدبية، وهو الآن رئيس تحرير الأسبوع الأدبي صحيفة اتحاد الكتاب العرب في سوريا."لمزيد من المعلومات راجع مقالة الشاعر احمد دحبور حول مجموعة الكاتب القصصية" جمر الكلام" في مجلة رؤية الشهرية عدد" ٢٨- آذار- ٢٠٠٤"، صدرت له إحدى عشرة مجموعة قصصية وثلاث دراسات.

كما صدرت له خمس روايات هي:-

١. السواد آو الخروج من البقارة.
٢. تعالي نطير أوراق الخريف.
٣. جسر بنات يعقوب.
٤. الوناس عطية.
٥. أنين القصب.
٦. النهر... بقمصان الشتاء التي نحن بصددها.

وهذه الرواية أي "النهر... بقمصان الشتاء" هي العمل الوحيد الذي ينشر للكاتب في فلسطين، و يبدو أنها تشكل ثلاثية مع رواية جسر بنات يعقوب وأنين القصب.
وهذا ما تؤكده مقالة الدكتور عبد المالك مرتاض المنشورة في صحيفة الرياض السعودية في ٣-٣-٢٠٠٥ حول دراسته عن رواية "أنين القصب" هذا العمل الروائي ثنائية تكمل إحداها الأخرى، وقد اعتمد الدكتور مرتاض على عدة أمور لإثبات هذه الثنائية، وهي موجودة أيضا في الرواية الثالثة التي نحن بصددها، مما يؤكد أنها ثلاثية متكاملة ومن هذه الأمور-:
"هذا الكتاب فيه مجموعة كتب، وصل إلي بالتوارث عن ثلاثة عشر جدا من أجدادي" ص٧ من رواية جسر بنات يعقوب،
"هذا الكتاب من كتب لا فضل لي فيها، ولا يد، كتب أشبه بالسير الذاتية لأناس عاشوا الأحداث وعاينوها" ص١٧

من رواية أنين القصب.
وما ورد في أنين القصب" هو ما استهل به الكاتب رواية " النهر... بقمصان الشتاء" استهلالا حرفيا، ومع أننا لم نقرأ الروايتين الأولى والثانية هنا في فلسطين، لأنهما لم تصلا إلى وطننا الجريح، إلا أن هذا الاستهلال موجود في الرواية الثالثة التي نحن بصددها".
كما استشهد الدكتور مرتاض بأمور أخرى في الروايتين الأوليتين اللتين لم نقرأهما وهي موجودة في روايتنا هذه ومنها-:
راهبات الدير تظاهرن بملابس الرجال، وهروب حنا من الدير خوفا من الغواية.
الدير والرهبان وقرية الشماصنة.
الأحداث تدور في سوق الخالصة، وفي القرى المجاورة لها.
استعمال الحواشي والتذييلات.
سرد بعض الحكايات عن أمور مثل، نزاء الثيران، وخصيها، وشم الفتيات، مبارزات الديكة، الحاوي وملاعبة الأفاعي، وهي أمور موجودة جمعيها في الرواية الثالثة، وهذا ما يؤكد أن الكاتب أيّ كاتب قد يبقي يحوم حول عمله الأوّل يأخذ منه، يزيد عليه أو ينتقص منه، وكأنه يكتب جزءا من سيرته الذاتية، أو من سيرة من أحاطوا به، ومن أولى من الفلسطينيين خصوصا اللاجئين منهم

من أن يعتمدوا على الذاكرة المحكية، ليكتبوا عن وطن سلب منهم، وليؤكدوا باستمرار هويتهم التي يحاول كثيرون تغييبها، وحقهم في وطنهم الذي يحاول كثيرون أيضا سلبهم حتى مجرد الحلم به؟ لقد اعتمد الكاتب على الذاكرة الفردية والجماعية لأناس عاشوا في هذا الوطن كبقية الشعوب التي تعيش في أوطانها، ولكنهم أجبروا على الرحيل عنه، ليبقوا يحترقون بنار الشوق إلى هذا الوطن الذي يعيش جزء منهم –ومن بينهم الكاتب– على مرمى النظر إليه، دون أن يتمكنوا من دخوله، أو التمشي حتى في مدن وقرى ومزارع قد يكون بعضهم ولد فيها وترعرع.
والقارئ للرواية يجد أن الكاتب ركز على أن فلسطين هي أرض الديانات السماوية، أرض التعددية الحضارية، لذا فإن الأحداث تدور في الدير وفي المسجد، للشيخ دور فيها، وللراهب والراهبة، وقد تعرض أتباع الديانتين كلتاهما إلى نفس الصراع والى نفس الأخطار ، وتبادلوا الحبّ نفسه، وتقاسموا شظف العيش، ويلاحظ أن أحداث الرواية كانت في أواخر العهد العثماني، وزمن الانتداب البريطاني، وفي النكبة الأولى لم يرحم الغزاة أيّا من الطرفين اللذين هما أبناء شعب واحد، هذا الشعب الذي قاوم الإنجليز بمسلميه ومسيحيه.
وهكذا جاء استهلال الكاتب لروايته في الصحفتين ١١ و ١٢ ليلخص لنا مضمون الرواية كاملا، لذا فإن روايته

كما جاء صفحة ١١ ا شبيهة بالسيرة الذاتية لقرى، ومدن، وأزمان، وراوة ورهبان وراهبات، ورجال دين، وعصاة، وغرباء، ونساء حالمات، وثكالى يتحدثون عن أزمنة اصطبغت بالهجر، والأذى، والخوف، والدماء، وعن أمكنه صارت عناوين للفجائع والأحزان العميقة. والكاتب حسن حميد الذي ولد خارج فلسطين اعتمد في روايته هذه، وفي ثلاثيته على الرواية الشفوية التي بحث عنها طويلا، لذا فهو يقول: كُتُب وصلت إليّ بعد بحث طويل، وتعب أزلي، وخوف أبديّ من أن تكون قد تفرقت أيدي سبأ، طاردت أصحابها، وبحثت عنهم، فجعت بموت الكثيرين، واغتراب الكثيرين أيضا، واحتراق ما دوّنوه، أو خراب ذواكرهم، ولم أنجح إلا قليلا، لكن القليل كان كثيرا.صفحة.١١

زمن الرواية: يمتد زمن الرواية من أواخر العصر العثماني، عبر مرحلة الانتداب البريطاني، والنكبة الكبرى التي حلّت بالشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨، وقيام دولة إسرائيل، وإجبار مئات آلاف الفلسطينيين على ترك بلادهم، واللجوء إلى الدول المجاورة، والتشتت في مختلف أصقاع الأرض، ثم قيام حرب عام ١٩٦٧ وما كان لها من نتائج، حيث وقع ما تبقى من فلسطين وأراضي عربية أخرى تحت الاحتلال الإسرائيلي.

ومع أن الكاتب وصف وأجاد الوصف، إلّا أنّه من بعد

الصفحة ٢٥٠ ، أي الفترة التي أعقبت النكبة الكبرى مرّ عليها مرّا سريعا، ولم يعطها حقها كما أعطى الفترات السابقة لها.

حلم العودة

انتهت الرواية بوصيّة كعدي بن شتيوي لأطفاله بأن يدفنوه بجانب والديه قرب دمشق عندما يموت " وأن يأخذوه ووالديه ... معهم .. إن عادوا إلى الشماصنة " ص ٢٩٠.

وانتهت الرواية بتذييل أخير : " مند ذلك الحين، وأولاد كعدي يُحسّون بأنّ أجراسا تطوق أعناقهم، تقرع في آذانهم ووصية تقول لهم : متى سيكسرون بلاط القبر .. ليعودوا بالعظام .. إلى الشماصنة."

أي أنّ القضية تنتقل من جبل لجيل، وأنّ من مات خارج الوطن لاجئا فإن رفاته لن يعرف الراحة إلّا بالعودة إلى أحضان الوطن.

محمد موسى سويلم قال:

بدأ الراوي بنشر الغسيل على الحيطان من حكايات للأديرة وقصص الرهبان والهبات التي تقدم للاديرة والكنائس، ثم انتقل ليدق باب الحب والعشق والهيام والغزل ووصف الأحبة واللقاء والعناق، وكأن الرواية الفلسطينية قد أفلست من روايات الأبطال الجرحى والشهداء والثوار ولم يبق سوى روايات العشق والحبّ والضمّ إلى الصدور ووصف المفاتن ... ترى هل هناك المزيد؟.

حبّ وعشق ومدت النهاية المحزنة ترى أين الروحانية والعبادة والصلاة والخشوع والرياضة الدينية والتفكر والخدمات الإنسانية والاجتماعية؟ أم على قلوب أقفالها الغيبة والنميمة والغيرة والحسد والخوف والقهر والحيرة والعذاب ... الخ؟ مصطلحات بثتها الرواية، قاموس واسع من المعاني، ترى ما يعني هذا في حياة الدير والمسجد في أرض لا أظنها ارتوت من دماء الأبطال.

ثم بدأ الراوي في رحلة قدر لها أن تضع النقاط على الحروف... في رحلة قدر لها أن تكون معاصرة في القلوب والوجدان والأقلام، وأن تكون مادة خصبة في تاريخ الأمم والدين وعنوانا للشعراء والموسيقيين وصناع القرار.

كتبت الرواية بدم أناس لم يغيبهم التقاليد والعادات التي ما أنزل الله بها من سلطان، مثل الوشم وزيارة الأولياء والدعاء للخصب وإضاءة الشموع في النهار وكثيرا من تلك العادات، إلّا أن تلك العادات لم تكن عائقا أمام الوعي بهموم الوطن والمواطنة ورفع الظلم عن البلاد والعباد والتضحية بالمال والولد والنفس.

دقت الرواية بابا من أبواب التخاذل العربي في قضية الدفاع عن قدس الأقداس، وعن أرض داسها الأنبياء وفتحت بابا واسعا من التعاون العالمي بكل قوته في زرع ورعاية الأفكار الصهيونية على تلك الأرض، وقدمت من أجل هذا الزرع كلّ الوسائل لتمكينه من العيش والزرع في

هذه الأرض، وقامت بخلع كلّ ما يمكن أن يعيق هذا الزرع بحجج واهية.
ثم وصفت الرواية بابا لن يغلق بإذن الله ألا وهو باب الوحدة التي عجزت كل أنظمة الأرض في زعزعتها أو النيل منها، وهي وحدة الشعب الفلسطيني مسيحيين ومسلمين، والتعاون الوثيق بين المسجد والكنيسة في رفع المعاناة عن الأهالي في فترة عزّ فيها العطاء، وفي أشد حلكة للظلام، وحدة ستبقى إلى ما شاء الله.

الرواية واحة من واحات مليئة بسرد الذكريات حلوها ومرّها، جمعت بين عادات ومعتقدات من الوعي واللاوعي، الأمل والحبّ والحنان والغربة والشتات والضياع، سير من حياة أناس عاشوا من أجل البقاء في عالم مليء بالكره والغضب، سرد في آهات العذاب، تذكرني الرواية حين كنت أصل إلى الحاشية أو التذييل بقصص أمّي حين كانت تقول فتّكم بالحكي أو برجع خرافنا أو نسيت ، أحكي لكم...
في نظري أبدع الراوي في رسم لوحة زيتية للواقع الفلسطيني لمرحلة ما قبل الشتات، ثم عاد ليرسم لوحة في خضم الشتات نفسه، وزينها بلوحة ما بعد الشتات ترى من يرسم لوحة العودة والشتات؟.

عزام أبو السعود قال:
إذا كانت "حواديث" وقصص المدينة والقرية الفلسطينية، تتناقلها الألسن جيلا بعد جيل، وإذا كانت هذه القصص تشكل جزءا من تاريخنا الشفوي، فإن تدوين هذه القصص وتدوين التاريخ الشفوي هو عمل قومي علينا أن نحرص على القيام به، حتى لا يضيع كما ضاعت الأرض، وكما تكاد تضيع القضية
لقد استمتعت في الأسبوع الماضي بقراء رواية " النهر... بقمصان الشتاء " للكاتب الفلسطيني حسن حميد، والحقيقة أنها لم تكن رواية واحدة، وإنما هي سلسة روايات من حكايات أجدادنا وآبائنا وأهل بلدنا، أدخلها كاتب حاذق، وبتسلسل متناسق في عمل روائي واحد، وضع له حواشي وهوامش، تربط القصص ببعضها، وتفسر الأحداث، وتتمم القصة الشعبية لتدمجها في الرواية بشكل ممتع وغير مسبوق في كتابة الرواية بشكلها التقليدي، لتدخلها ضمن إطار زمني يحكي أحداثا تاريخية مرت بها القضية الفلسطينية، منذ نهاية الحكم العثماني، فالانتداب البريطاني، فالثورات الفلسطينية، والنكبة والنكسة، تحكي الهجرة والاغتراب، تحكي قصص الدير والجامع، تصور الهجرة اليهودية وبناء المستوطنات الأولى للمهاجرين اليهود. تصور المذابح التي اقترفت بحق شعبنا، تصور الحبّ والحياة والموت، تصف عاداتنا وتقاليدنا.

وإن كان شتيوي ودندي هما بطلا الرواية الرئيسيين المتيمين بالحبّ، واللذان شاعت قصة حبّهما العذري حتى لاكتها الألسن، فلم أعرف إلّا في نهاية القصة، ما إذا كان شتيوي مسيحيا أم مسلما، فقد عشت من خلال الرواية في جوّ فلسطيني بحت ، يشير إلى التوافق والتفاهم والتلاحم الإسلامي المسيحي، لأن الرواية انتقلت بنا بين الدير والجامع، بين الراهب عطايا والشيخ المصباحي، نقلتنا من سوق "الخالصة" التي هدمت وأقيمت مكانها كريات شمونه، إلى قرية الشماصنة، إلى جسر بنات يعقوب وقرية نعران في الجولان، مرورا ببنت جبيل في لبنان، وبوسطن في أمريكا، ومناطق في أقصى شمال فلسطين، نتعرف على الحياة بها قبل النكبة، وقبل النكسة من خلال تسلسل العمل الروائي.

لقد دوّن حسن حميد في هذا العمل، جزءا هاما من تاريخنا الشفوي، وأخذه كما يقول ممن بقي على الحياة من الرواة، وتعب كثيرا حتى جمعه، وحزن كثيرا لأنه وجد بعض الرواة قد غادروا هذه الحياة، لكنه وثق لنا في النهاية رواية تاريخية لأحداث تمت في الثلثين الأولين من القرن الماضي ، وفي منطقة لم يكتب الكثير عنها، ووصف لنا كثيرا من الأماكن، واكثرها تمّ تدميره، وأصبح أثرا بعد عين، وصف لنا حياة القرية، ووصف ما يتم في حمّام النساء، في اليوم المخصص لهن بالقرية، بصورة جميلة

واقعية غير مسبوقة، ووضع جميع ذلك أمامنا بشكل روائي مشوق، لقصة حبّ تكاد تضاهي قصصنا القديمة كعنترة وعبلة، وقيس وليلى، وبأسلوب يستحوذ على القاري ويشده فيجعله لا يترك الكتاب حتى يصل إلى آخره.
لم أستمتع بالقراءة منذ مده طويلة كما استمتعت بهذه الرواية، وأعترف أن هذا أولّ عمل أقرأه لحسن حميد رغم أن له قرابة العشرين عملا قصصيا أو روائيا أو بحثا.

خليل سموم قال:.

•رواية شيقة، رائعة، محزنة، واقعية، مستقاة من صميم تاريخ فلسطين وشعبها، عشية بداية الانتداب البريطاني، وتشريد معظم أبناء الشعب الفلسطيني عن أرضه ووطنه عام ١٩٤٨ وما قبله.

•إنّها عرض أدبي لجزء من تاريخ شعب، يبيّن من خلاله الكاتب بكل وضوح وبساطة الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتلك الفترة.

ملاحظات عامة:

١. حجم الكتاب مناسب والورق جيد، والكلمات واضحة، ولون الغلاف مريح للنظر، وصورة الغلاف معبرة، حيث أنها مأخوذة من صميم الواقع، وهي منظر لمدينة فلسطينية تقوم شرطة الانتداب البريطاني فيها بتفريق مظاهرة لفلسطينيين ولكن كان الأفضل وضع شرح عن الصورة في بداية الكتاب.

٢. عنوان الكتاب فيه غموض، وقد حاولت جهدي أن أفهم المقصود بالعنوان لكنني لم أنجح في ذلك.
٣. عناوين الكتاب القرية ممتازة وسهلة وتتلاءم مع الموضوع.
٤. جاء في نهاية الكتاب قائمة بأسماء الكتب التي أصدرها المؤلف، وهذا شيء جيّد ولكن، لماذا لم يكن هناك موجز تعريف بالكاتب؟.
٥. الرواية يفهمها بسهولة كلّ قارئ عربي فلسطيني. ووصف الأحداث و الأشخاص والأماكن فيها ممتازة . وقد أكثر الكاتب من استعمال التشابيه البسيطة والواضحة والجميلة، والتي تجاوز عددها المئة تشبيه، وهذا مما زاد في توضيح المعاني.
٦. الحوار في الرواية توفر بقدر جيد وهو سهل ومفهوم.
٧. لقد وصف الكاتب بالتفصيل كثيرا من العادات والتقاليد الشعبية الفلسطينية، وكان رائعا في وصفه. وكذلك عدّد الكاتب كثيرا من المميزات الطبيعية التي كانت تتصف بها بلادنا قبل انتدابها من قبل الانجليز.
٨. لقد حوت الرواية وصفا لحوادث مهمة من تاريخ الشعب العربي الفلسطيني، وهذا مما يزيد معلومات القارئ، منها ما جرى لقرية العباسيّة من مجزرة ونسف بيوت على أصحابها، حوادث استشهاد الشيخ المصباحي ووفاته، والشيخ عزّ الدين القسّام، وعبد

القادر الحسيني، تهجير سكان قرية الشماصنة إلى سوريا، حادثة استشهاد شتيوي ودفنه في سوريا بجانب زوجته دندي.

٩. وقد احتوت الرواية أيضا على مجموعة من قصص الحبّ، معظمها حبّ فاشل: دعموش وربيحة، عطايا وهيلانة، هيلانة ورباح، نجوم ومثقال، فتحية ونديم, و أخيرا قصة الحبّ العظيم المؤلم بين شتيوي ود ندي، والتي شغلت حيّزا كبيرا من الرواية.

١٠. المتكلمون في الرواية هم: غطاس، الكاتب نفسه، الراهب غطاس، الشيخ المصباحي، وشتيوي. وكان نصيب الأسد في الكلام للراهب عطايا وشتيوي.

١١. بيّن الكاتب في الرواية كيف أن رجال الدين المسيحيين والمسلمين في القرية التي جرت فيها أحداث الرواية الرئيسية لم يقتصر دورهم في تلك الفترة من تاريخ الشعب العربي الفلسطيني على الصلاة والوعظ وإلقاء الخطب فقط، لكنهم شاركوا بكل جرأة وتضحية في مقاومة الاحتلال.

١٢. جاء في الرواية ذكر لبعض القرى مثل: الخالصة والعباسية وقد فتشت عليها في بعض الخرائط والكتب فوجدتها، ولكن ومما يؤسف له فإن قرى تقع بجوار القرى المذكورة ، مثل : الشماسنة ، والعفيلة، والمرج، والصاحلية، والناعمة ، فلم أجدها في الخرائط والكتب

المتوفرة لديّ، وهي : موسوعة فلسطين الجغرافية لفلسطين، والقرية العربية الفلسطينية لشكري عرّاف، والمواقع الجغرافية في فلسطين لقسطندي نقولا، وموسوعة بلادنا فلسطين لمصطفى مراد الدباغ، والموسوعة الفلسطينية، وخارطة فلسطين قبل عام ١٩١٧ لخليل التفكجي، والصادرة عن جمعية الدراسات العربية في القدس.

١٣. وأخيرا ، لقد بدأ الكاتب روايته بوصف أحداث جميلة من واقع المجتمع الفلسطيني، وأنهاها بوصف أحداث مؤلمة لأحوال الشعب الفلسطيني، وهذا ما حصل بالفعل لفلسطين وشعبها.

محمود عبد النبي قال:

جاءت البداية في هذا الكتاب متواضعة بالاستهلال، وبالقراءة للكتاب لاحظت فيه وصفا كثيرا والكاتب يجيد الوصف، العبارات متسلسلة ومترابطة وأقصد بالوصف كثير الإطالة كوصفه للسّوق وما فيها، والوقائع التي تحدث فيها، وكذلك إطالة وصف الحمام ونشاطاته، ولم أفهم أمورا معينة في الكتاب، وشعرت أنها ملصقة بصفحاته كالهامش، والحاشية والتذييل.

عبر الكتاب عن حقبة زمنية معينة، فجاء فيها الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية آنذاك، كما جاء فيه

عملية سياسية اجتماعية بالتقاء المصالح، ولكنها على المستوى الفكري البسيط لدى المجتمع في ذلك الوقت، ومثال ذلك الثور والبقرة ص ١٤حيث بعد انتهاء المهمة يأخذ هذا من ذاك القمح والشعير والذرة الصفراء، وص ١٥ تأسرنا بعادات وتقاليد قد اضمحلت بمرور الزمن كطقس الحناء للفتاة.

ومما جذب انتباهي بعض الجمل والمواقف كتخفي الراهبات بزي الرهبان حتى لا يطمع بهن طامع ص ٦٤ ، إذن هو ليس بشيء جديد لنا في عصرنا، يبدو أن الناس أو الشعب يتشبثون بالتفاهات والآفات ليورثوها إلى خلفهم، للأسف الشديد هذه ظاهرة لا زالت تعيش في كينونتنا، وأصحابها يكثرون في قطاع الشباب ذوي الطاقات الكلامية الرثة اللامتناهية.

وبنقلة إلى الحبّ والذي جاء على أشكال مختلفة من المآسي كان سببا وراء التحاق الأشخاص بالأديرة.

وشعرت في بعض الأحيان بالافتقار لتفاصيل، أو عملية تسريع للأحداث مثل عودة ربيحة وموت نعيمة وأمّها وأمّ دندي ، وأيضا زواج دندي في جملة واحدة ص ١٧٥ ، لم يكن لا مؤثرات ولا دلائل يستدركها القارئ، أو يستطيع التنبؤ بها، كما وشعرت بأن الرواية هي كمثل رواية بعضها متصل كوجه حبّ شتوي ودندني والبعض الآخر يأتي مباغتا لمنطق التسلسل كحادثة العباسية ص ١٥١

والحمام، وأحسست بأن الرواية رواية شتيوي ودندي، وأن هناك فقرات رغم أهميتها لا تشدّني، وقد تكون أهمّ من قصّة شتيوي ودندي كالعباسية، واقتحام اليهود لها والثوار وغير ذلك، إلّا أن التوجيه بالكتاب كان منحازا لقصة من الحبّ العنيف.

وأخيرا، نرى أن كل الأحداث خرجت ودخلت من وإلى الدير، وكان الدير ملاذا للناس وخلاصا للبعض وهروبا للآخر.

موسى أبو دويح قال:

لا أدري لماذا اختار الكاتب هذا الاسم " النهر... بقمصان الشتاء " لرواية، حيث أن جميع العناوين التي في الرواية، خلت من هذا العنوان، وجاءت العناوين فيها حسب الترتيب التالي: استهلال، في سوق الخالصة، ربيحة، الراهب عطايا، شتيوي ودندي ليالي القمر، خطبة دندي، الشيخ المصباحي، الرحيل إلى أمريكا، العباسية، الحمّام، زواج دندي من غير شتيوي، الخوف في الدير، العودة من أمريكا، زواج دندي وشتيوي، رحيل الشيخ المصباحي، شتيوي الملاك، دروب الحزن، الدير مرّة أخرى، الخروج من الشماصنة، على الطرف الشرقي من النهر، الأخرس شامان، وموت شتيوي.

فالرواية كما يقول مؤلفها أشبه ما تكون سيرة ذاتية لأناس عاشوا الأحداث، أو هي وصف لما كان عليه أهل فلسطين،

وشمالي فلسطين بالذات، مسلمين ونصارى، في الفترة الواقعة بين ١٩٣٠و ١٩٧٠ تقريبا، في حياتهم من جميع نواحيها، المعيشية والاجتماعية والعاطفية والنضالية، وما لاقاه الشعب الفلسطيني في تلك الفترة من قتل وتشريد وشقاء وعذاب، وشظف العيش وقسوة الحياة.

ولقد ركز الكاتب على الشخوص والأمكنة تركيزا ظاهرا، فجاءت الشخصيات في الرواية حيّة واضحة ، يراها القارئ تتحرك أمامه كأنه يشاهد فيلما على الشاشة، وأبرز الشخصيّات شتيوي ودندي والراهب عطايا والشيخ المصباحي، وأمّا الأمكنة فهي في شمالي فلسطين بعد صفد وقرية من الحدود اللبنانية، والنهر أيّ نهر الأردن وطبريا والجولان وبنت جبيل في لبنان وغيرها كثير.

ولقد تناول الكاتب في روايته أعمال الثوار الفلسطينيين في الثلاثينيات والأربعينيات ، وحرب ١٩٤٨ واحتلال اليهود لجزء من فلسطين، ومساعدة الانجليز لليهود وتمكينهم من إقامة دولة إسرائيل، وتناول أيضا نكسة ١٩٦٧، وما كان فيها من تشريد، ولكنه أقل من التشريد في نكبة ١٩٤٨، ووفق الكاتب في إظهار العلاقة بين المسلمين والنصارى، وهي علاقة تقوم على أساس العيش المشترك بينهما، حيث رأينا أن الدير كان يستعمل ملاذا آمنا للثوار، ومخزنا حصينا لسلاحهم، وهذا يدلّ على أن نصارى الشرق، عاشوا مع المسلمين في أمان، ولقد اكتسبوا من المسلمين

– نتيجة العيش الطويل كثيرا من تقاليدهم وعاداتهم، وهم يدافعون عن شرفهم وعرضهم دفاع المستميت، فهذا سمعان النصراني والد دندي يفلح على شتيوي أي يقرنه مع البغلة، ويحرث عليه لمجرد أنه هام بابنته دندي، وهو يعلم أن حبّ شتيوي لدندي حبّ عذري عفيف طاهر شريف، وما ذلك إلّا لأن الإسلام رسّخ في النفوس أن المرأة عرض يجب أن يصان ويحافظ عليه، ولا يجوز أن يمس أبدا ولو بحبّ عفيف طاهر.

وجاء السّرد في الرواية خاليا من كل تزمت دينيّ، سواء كان التزمت من النصارى أو من المسلمين، فأنت لا تكاد تعرف الشخص المسلم في الرواية إلّا من خلال بعض الإشارات التي تأتي خلال السرد عرضا، فأنا ما عرفت أن شتيوي مسلم إلّا من إبريق الوضوء في آخر الرواية، وقبل موته بقليل، وليس هناك في الرواية ما يدلّ على أن دندي نصرانية، لولا علاقة أبيها سمعان مع الراهب عطايا، ومشاورته له. والعيش في الرواية بين المسلمين والنصارى عيش طبيعي، لا بغض فيه ولا كراهية، فهذا سمعان والد دندي، لم يقل للراهب عطايا أن شتيوي مسلم لاحق له في زواج ابنتي دندي، وهذا الراهب عطايا لا يستنكر زواج دندي من شتيوي المسلم، بل ويرغب فيه ويشجع عليه ويباركه، كما باركه الشيخ المصباحي عند حصوله بعد العودة من أمريكا.

وأخيرا كاتب الرواية حسن حميد ملم بالنصرانية وطقوسها أكثر من إلمامه بالأحكام الشرعية الإسلامية، وهذا ما يظهر واضحا في روايته.

سمير الجندي قال:

بدأ الكاتب روايته بأسلوب قصصي شبيه بالقصص الشعبية، حيث بدأ روايته في وصف دقيق للسوق، فلم يترك شاردة ولا واردة، إلّا وتناولها بتجسيد حقيقي ، واقعي، فصور لنا زوايا السوق، وما تحتويه، وأسلوب تعامل الناس في تلك السوق، كما نقل لنا بعض الصور عن عادات كانت سائدة في تلك الفترة مثل وشم البنات، مستخدما لغة قوية، جزلة، متكئا على الصور البلاغية ذات الدلالات العميقة مثل " أمشي فتمشي معي الدكاكين الخشبية، والتنكية، والحجرية، كما تمشي الأشجار أيضا. وكان يتحدث تارة بضمير الغائب وفي نفس اللهجة ينتقل لضمير المتكلم " الالتفات" بقدرة تنم عن دراية جيدة في استعمال اللغة، وقد أطنب الكاتب في أكثر من محلّ مما أفاد الهدف القصصي إفادة عظيمة.

أحداث الرواية

جاءت متراكمة متميزة تعجّ بالحركة والانفتاح مما جعلها مشوقة، تشدّ القارئ من البداية حتى النهاية، تارة تكون الحبكة فيها مفككة وتارة متماسكة، فقد قصد الكاتب أن تكون الحبكة مفككة، حيث أن الأحداث متعددة ومختلفة،

فهو ينتقل من حدث إلى آخر إلى فكرة إلى لفتة أو تعليق، وهذا يشير إلى التدفق والعفوية لدى الكاتب.
لكنه في أجزاء أخرى من الرواية اعتمد على الحبكة المتماسكة التي تندرج فيها الأحداث، لبنة لبنة، في شكل مخطط ومبرر له.

الشخصيات

كانت شخصيات الرواية متعددة وكثيرة، ومنها الشخصيات النامية المتطورة مثل شتيوي الذي استطاع أن ينتصر على المكان والزمان أكثر من مرة، فقد تحول من إنسان ريفي يعيش بقرية " الشماصنة " التي لا يعرفها إلّا أهلها أو القرى القريبة منها، استطاع أن يسافر أوّل مرّة إلى بنت جبيل في لبنان، ويغيب في العمل مدة سنة ليجمع ثمن أساور الفضّة لمحبوبته، لا لشيء إلّا لأنه رأى في الحلم أنه يقدم لها تلك الأساور، وعاد بعد أن حقق هدفه، وفي المرة الثانية تحدى والد محبوبته المتغطرس بعد طلبه المطلب الإعجازي بأن يقدم مهرا لدندي عبارة عن جرة مليئة بالذهب، إلّا أنه وافق على هذا الطلب، وسافر إلى بنت جبيل وعمل بجد ونشاط وواجه كل الصعاب والأحزان وفاء لمن أحبّهم وأحبّوه في تلك القرية، وسافر مع (فتحية) إلى أمريكا وقضى فيها سنوات طويلة،رجع بعدها إلى الشماصنة ليجد والده قد توفي، ووالدته أيضا والراهب عطايا، وتغيّرت البلاد، وأصبح هناك أناس غرباء يسألونه

عن وجهته، ويفتشون أمتعته في مدخل القرية .. ولكنه عاد ومعه الذهب إلى محبوبته التي وجدها قد تزوجت وطلقت أثناء غيابه، وقد خلفت ابنة (زينة) ولكنه يتزوجها ويعيش معها هي وابنتها، وينجب منها ولدا يسميه باسم أبيه. ومن الشخصيات النامية الراهب عطايا الذي يترك أسرته الغنية ليعيش في الدير بعيدا عن حياة والديه رغم الجاه والترف، لأنه غير راض عن سلوك والده ووالدته، فهو لا يريد أن يرى والده يقوم بقتل والدته أمام عينيه بسبب سلوكها الشائن مع شخص غريب. ولكنه عندما يعيش بالدير يصبح رسولا للسلام والمحبة وناصحا ومرشدا لأهل القرية، وبعدها مناضلا معاونا للثوار ومتعاونا أيضا مع الشيخ المصباحي أمام المسجد بانيا معه تعاونا مشرفا بين الدير والمسجد، لتحقيق هدف واحد وهو مقاومة المحتلين ومعاونة الثوار، وهناك شخصيات مسطحة مثل مثقال قاطع الطريق الذي لم يتغير حتى يقضي نحبه ووالد دندني ووالد شتيوي ووالدته ووالدتها.

البيئة المكانية والزمانية

امتدت البيئة المكانية وتنوعت بين الدير والمسجد والقرية وبنت جبيل والميناء والباخرة وأمريكا.

فالدير بيئة حدّدها الكاتب في أنها ملاذ للمعذبين والهاربين، فالذين توجهوا إلى الدير لم يكن توجههم بسبب الأيمان، وإنّما لأنّ لهم قضايا ما تلاحقهم مثل الراهب عطايا ورشيد

وفريحة، فقد نجح الكاتب في توظيف المكان بصورة مبدعة معبرة عن أهمية المكان بالنسبة للإنسان فكان ملاذهم في كل وقت، صورة القرية وهدوؤها وحياتها الريفية في البداية وكيف تدرج في الأحداث حتى وصل ما وصلت إليه الحالة من بؤس وشقاء بعد أن حضر الإنجليز ومعهم اليهود، ففجروا قرى كاملة مثل "العباسية" وطردوا سكان القرى بالإرهاب والقتل والدمار، فصار الموت في كل مكان والأمن أصبح مفقودا.

البيئة الزمانية

امتد الزمان في الرواية منذ أواخر العصر العثماني، وذلك عندما أشار إلى العملة التي استعملت في ذلك الحين ص ٨١ (البارة) وهي عملة عثمانية، ثم تدرج الزمن حتى وصل إلى ١٩٤٨ مرورا بالاستعمار الانجليزي الذي جلب اليهود، وقدّم لهم كلّ التسهيلات من سلاح وأرض وتدريب، في الوقت الذي كان يلاحق أهل البلاد والثائرين على أنهم قطاع طرق، لقد قام الكاتب بتصوير الفترات الزمنية بكل اقتدار وبتسلسل فائق النجاح اتسم بالتشويق والإثارة والعاطفة.

استخدم الكاتب الفعل الماضي كثيرا خاصة في الفصول الأخيرة من الرواية، وإن دلّ ذلك على شيء، فإنه يدل على عاطفة الكاتب الجياشة مع كل حرف من حروف الرواية.

ديوان نزف التراب

القدس: ٥ نيسان –ابريل– ٢٠١٢ ناقشت الندوة ديوان "**نزف التراب**" **للشاعر بكر زواهرة** الصادر في نهاية كانون الثاني–يناير– ٢٠١٢عن **دار الجندي للنشر والتوزيع**، وهو باكورة أعماله الشعرية التي تصدر في ديوان.

بدأ النقاش **جميل السلحوت** فقال:

بكر زواهرة شاعر فلسطيني في الثلاثينات من عمره، ولد في عرب التعامرة قضاء بيت لحم ويقيم في بيت صفافا في القدس، والقارئ لقصائد الديوان –الذي قسّمه صاحبه إلى بابين، باب للقصائد الوطنية والثاني للغزل، سيجد أن الشاعر لجأ إلى الشعر العمودي المقفى، بشكل واضح، وأجاد فيه أكثر من إجادته في الشعر الحرّ، وإن كانت الصور الشعرية في القصائد العمودية بحاجة إلى عناية أكثر، فإن ضعفها واضح في قصائد الشعر الحر، بل إن بعضها جاء كتقرير إخباري مثل قصيدة"جدار العنكبوت" التي يصف فيها جدار التوسع الاحتلالي.

وقراءة متمعنة للقصائد تشي بأن بكر زواهره يتمتع بموهبة الشعر، لكنه لم يصقل هذه التجربة من خلال الاطلاع بما يكفي على الشعر العربي القديم والحديث. حتى أنه يبدو ناظما أكثر منه شاعرا في بعض القصائد مثل قصيدته

الساخرة "المحامي."
أمّا بالنسبة للمضمون، فواضح أن الشاعر يعيش آلام وآمال شعبه، ولا خيار له في ذلك، فهو ابن هذا الشعب الصابر المجاهد، ولذا فإن تعلقه بالقدس وما تمثله في الوجدان الفلسطيني والعربي واضح للعيان، وقصائده في القدس لا تَصَنُّع فيها، وهذا نتاج عاطفته الصادقة تجاه جوهرة المدائن، وكذا بقية قصائده الوطنية وإن كانت أقل جودة من مثيلاتها عن القدس.
وقال **رفعت زيتون:**
أبدأ مداخلتي من صفحة رقم ٧٠ في ديوان الشّاعر بكر زواهرة ،وتحديدًا عند بيت الشّعر الوارد في قصيدته والذي يقول فيه،:
ولستُ أرضى بنقدٍ غير منتقدٍ .... نفسي وأثني على نقدٍ لأوزاري
وأنطلق من هذا البيت في مداخلتي المختصرة، وقد وجدت هذا البيت ، منفذًا مناسبًا لتمرير ما أريدُ قوله، وبداية أبارك للشّاعر بكر هذا الإصدار البكر، والذي وجدتُ فيه خامة جيدةً لميلاد شاعر جديد، شاعرٍ يميلُ إلى الأصالةِ في نظمِ القصيد، ويعيدنا إلى زمن القصيدة الكلاسيكيّة القديمة والتي كانت بوابة النّجاح لكلِّ شاعر، حتّى أولئك الذين ساروا في دروب الشّعر الحديث.
وعودة إلى ما بدأتُ به، أقول أن شاعرنا كغيره من الشعراء

الذين خاضوا أولى تجارب إصداراتهم- وأنا منهم- كأنّه كان يصارع الزّمن
حتّى يرى وليده هذا النّورَ، وحتّى يرى بأمّ عينه ثمرة هذا الجهد، ومن منطلق الحرصِ على قلمه الجميل كنت أودُّ لو أنّه أعطى مزيدًا من الوقت لهذا العمل، وبذل مزيدًا من الجهد واشتغل أكثر على لغته الشّعرية، لتجاوز بعض كبوات الوزن، وهفوات الطّباعة، وزلّات اللغة تركيبًا ونحوًا ومنطقًا، وهذا مجرّد رأي يحتمل الخطأ والصّوابَ، قرأتُ في ديوان الشاعر بكر القصيدة الوطنية وقصيدة الغزل وبعض النّثر، وقد أذهلني أحيانًا قوّة المعنى والمبنى لبعض الأبيات، ولكنّني بالمقابل قرأت ما أثّر على تلك النماذج سلبًا لأكثر من سبب ومنها مثلا:
-التّكرار للمفردة أو الجملة أو المعنى في القصيدة الواحدة
أو في مجموعة قصائد ومثال ذلك جملة (يا قدسُ) التي تكرّرت في أكثر من قصيدة أكثر من مرّة، وكلمة الشّعر في قصيدته الثانية، وغيرها.
-خلل أو كسر الوزن:
في جملة (من قبل أن يحشر الواحد الصمدُ ص٢٣) عند مستفعلن الثانية
والقصيدة على بحر البسيط. وفي ذات القصيدة في جملة (بغداد لا بل عليها الجوّ يترصّد) كسر واضح في فعلن

الثانية وهي على البسيط. وفي جملة (لا تعجبي من ذا إلا فلتعجبي ص٤٢) وأظنّه خطأ طباعيّ أدّى إلى كسر الوزن، ولو كان (لا تعجبي من ذا ألا فلتعجبي) لاستقام الوزن والقصيدة على بحر الكامل. ويتكرّر ذلك في ذات الصفحة في أكثر من موضع. وهناك هنات في بعض الدلالات التي اضطر لها الشاعر لضبط الوزن ومنها كلمة الوسامة ص٣٤ وحسب سياق الجملة أراد بها الوسام، وكلمة مكاتبًا وهي جمع مكتب وسياق الجملة يقود إلى الكتب، وليس المكاتب، وجمع شاعرنا كلمة ترب على أتراب والأتراب هم الصديقات اللواتي يكنّ
قريبات سنًّا، واستخدام كلمة الفرسان للدلالة على الفرس كذلك.

هذا بعض ما جعلني أقول في بداية مداخلتي أن مزيدًا من الاشتغال على اللغة، وكذلك التّدقيق العروضي كان سوف يخدم الدّيوان أكثر للخروج بحلّة أجمل، وكذلك لاحتواء الدّيوان على الكثير من مواطن الجمال والقوّة، ولأنّ أيّ خدشٍ في وجه العروس حتمًا سيكون ظاهرًا جليًا وسوف يؤثر على جمالها العام.

وتحدث إبراهيم جوهر وأشاد بموهبة الشاعر، لكنه اعتبره متسرعا في نشر ديوانه. أمّا سمير الجندي فقد تنبأ بمستقبل شعري لبكر زواهرة.

وكتب **نبيل الجولاني:**
نظم الشاعر بكر زواهرة قصائده للقدس والوطن وكان خجلاً من نظم الشعر فقط للقدس دون أن يعمل على تحريرها هو وكل الشعراء والكتاب والأدباء، حيث اتضح له أن تحرير القدس يتم بالفعل والعمل، وليس بالأقوال كما جاء في قصيدة يا قدس:

قد طأطأ الشعر عند القدس هامته
فالسيف أولى من الأقوال في الجللِ

ومجدَ الشاعر القدس أيما تمجيد، وبكاها في قصيدة أخرى أيّما بُكاء حيث قال:

بكيتُ قدسا كما الأحباب تُبكيني
هل يا تُرى الدمعُ في الأجفان يكفيني

وقال الشاعر عن غزة التي تستصرخ العرب وتستنجد بهم في كلّ مرة تتعرض فيها للعدوان:

يا شعر ثُره واصعق الأسماع قافية
من غزة العرب والأرواح تنحصدُ

كتب عن مرور ستين عاماً على النكبة، وعن التخاذل العربي وعن الآلام التي يعانيها الشعب الفلسطيني من تشريد وتدمير وطرد ومصادرة وتعذيب وقتل، وعن حبّه لأرضه وبلده وأبناء شعبه.

كتب الشاعر بكر زواهرة أيضاً عن الشيخ رائد صلاح هذا الشيخ الجليل أصيل الانتماء والوفاء والفداء، والذي فعله يسبق قوله حيث قال:

حّييتُ فيك مواقفاً ومواهباً
حّييتُ فيك مداخلاً ومناقباً

وكتب عن العظماء يمجدهم خالد بن الوليد الذي قاتل بسيفه كما قاتل محمود درويش بقلمه، أجل إنه عهد البُطولات.

كتب عن الشهيد والشهادة وعن مصر العروبة الثائرة دائماً، وعن الشعوب التي تسعي للعدالة والتقدم والمساواة والحرية والاستقلال.

كتب عن آلامه وآماله، وعن الضياع الذي يعيشه شباب اليوم والفراغ والفساد الذي هم فيه، حيث جاء في قصيدة شباب اليوم:

على الشباب حنايا الصدر باكيةٌ
إذ هم بجرفٍ عميق الغور مُنهارِ

كتب عن السجن والسجان وأساليب التعذيب والتحقيق... عن النكبة..عن الكفاح...عن الجدار العُنصري...عن العمال والشهداء.

وكما كان الشاعر بكر زواهرة في وطنياته صادقاً منتمياً متحمساً مقداماً كان في غزلياته عاشقاً مُتيماً مُرهف الحِسّ، وعاطفته جياشة فيبدأ قصيدته يا أجمل الناس:

عشقتُ من أجلكِ الأشعار والأدبا

وعشقت يا للهوى قد هزّني عَجبا

الشاعر عانى من فراق الحبيب كما أُسر بسحره وجماله واكتوى بنار الحبّ، وأُصيب بسهامه الجارحة، وافتتن بالهوى وشؤونه وشجونه من العيون والضفائر والشعر والقدّ، ومن بحور الحبّ وآفاقه وفضاءاته وقصيده ولُغته وبلاغة معاجمه.

إنه الشاعر بكر زواهرة، كتب قصائده بماء قلبه وأعصابِ دمه وخَلجات روحه، ومسامات فكره وفُسيفساء أبجديته مُبدعاً مُحلقاً في سماء الشعر وسلمه وموسيقاه ومُعانيه ومضامينه، يُسطر الصفحات بما اختزنه صدره ويُلونها بقوافيه ويُعنونها بنزف التراب والماء والهوى والنار.

obeikandl.com